البعثة إلى الاتحاد السوفيتي

على قدر حُلمك تتسع الأرض

لم أكن بعثيًا من أتباع حزب السلطة الحاكم آنذاك...

لم أكن غنيًا أو ميسور الحال...

لم تكن لي ولا لأهلي أية صِلات بذوي نفوذ أو سلطة، وكما يُقال عنها بالعراقية العامية (الواسطة)...

لم أبلغ سن الرشد بعد ولم أحصل على دفتر الخدمة العسكرية...

وكذلك لم أكن مُسلمًا في بلد إسلامي يعتمد على هذا الموضوع في أولوليّاته...

ورغم كل هذا تمَّ قبولي كأول طالب بعثة دراسية حكومية رسمية إلى خارج العراق وفي أهم مفصل من مفاصل الدولة الحيوية ألا وهو الجيش؛ وتحديدًا سلاح الطيران!

* * *

صيف عام ١٩٧٣ بآلامه وأحلامه، ألسنة الشمس الحارقة تتماوج بفرح في كبد السماء وتقصف من تختار فوق الأرض بحممها دون رحمة، الحر كعادته ثقيل يضرب قمم رؤوس الناس بعنف فيحيلها إلى حمام ساخن وبركة صغيرة.

استقرت حالتي الصحية والنفسية بعد مرضي الشديد وشعرت بالرِضا إثر تفوقي وحصولي على علامات جيدة جدًا، وهنا بدأت مرحلة جديدة من حياتي وهي التقديم إلى الجامعة، والسعي للحصول على الكلية ونوع الدراسة التي أرغبُ بها، وبرزت مخاوفي الكبيرة في عدم استطاعتي تأمين مستلزمات الدراسة الجامعية من كتب وملابس مناسبة (الزي الجامعي الموحد) وأجور

النقل؛ بسبب حالة العائلة المادية المُتَدنية، إلا أن رحمة الله دائمًا ما تكون حاضرة، وإنَّ أقدار البشر قد تأتي في أية لحظة دون ترتيب مُسبق.

أعود إلى صديقي الصَدوق (علي حسين علوان) الذي ينحدر أصلاً من عائلة مُحافظة في مدينة ديالى سلة الغذاء العراقية، والتي تقع شمال شرق بغداد، ويسكن مع عائلته في إحدى أضيق الأزقة الشعبية لحي الفضل الشعبي في قلب بغداد، كان علي من أسرة ميسورة نسبيًا، إذ أن والده كان يمتلك محل لبيع المخللات في منطقة سوق قنبر علي الشعبية، كنت غالبًا ما أرافق علي في جولات المذاكرة، وأذهب معه كثيرًا إلى بيتهم الذي كان يعجُ بقوارير الفخار الكبيرة التي يصنعون المخللات فيها.

كان المشي في بيتهم ولغاية الصعود إلى طابق سكنهم الأول غاية في الصعوبة، كالقفز فوق حبل السيرك المتأرجح، لكثرة وعدم انتظام صفوف القوارير الفخارية التي يحفظون بها تلك المخللات اللذيذة، ناهيك عن رائحة الخل الحادة وفضلات مواد الخضار وغازات التخمير ورائحة البهارات العبقة، وما أن تصعد إلى بيتهم تجده بسيط ولكنه نظيف جدًا ومُرتب، يعكس حرص واهتمام ربة البيت أم علي طيبة الذكر.

والد علي الذي أعياهُ العمل الشاق، والمرض أجلسه الفراش، وجعلهُ مُتخصص وبمزاج عكر دومًا في إصدار الفرمانات الملكية لجميع أفراد العائلة التي تتكون من ثلاثة ذكور وزوجته دون استثناء أي أحد منهم، عاملتني أم علي كابنٍ رابعٍ لها، أطعمتني ما جادت به يديها الكريمتين ولا تزال ذاكرتي تحتفظ بنكهة طعامها البغدادي الفائق الجودة.

حصل علي علامات جيدة في امتحانات البكالوريا لكنها كانت أقل بقليل من علاماتي، وبدأنا معًا رحلة التقديم إلى الجامعة، لا أعرف كيف ولكن علي عَلِمَ أن الدولة ترغب بإرسال عدد محدود جدًا من الطلبة المتفوقين إلى خارج العراق لغرض الدراسة في اختصاص هندسة الطائرات، وأن وزارة الدفاع

العراقية وتحديدًا قيادة القوة الجوية هي التي ستتحمل جميع تكاليف البعثة والدراسة، كان هذا في عهد الرئيس العراقي أحمد حسن البكر.

يبدو أن القدر أحيانًا ما يبتسم للمرء حتى وإن بدا له ذلك كسراب، رغم أنَّ هذه المعلومة بالنسبة لي كانت بمثابة نقطة التحول الكبرى التي غيرت مسيرة حياتي كلها، لذا قررت وعلي أن نمضي في هذا الدرب، اقترح علي استشارة أحد أقارب والدته، وكان يعمل ضابط رفيع الرتبة في قيادة القوة الجوية ويسكن محافظة ديالى؛ بغية الحصول على معلومات أوفى منه فيما يخص هذه البعثة والدراسة.

مساء اليوم التالي؛ رافقت علي سيرًا على الأقدام إلى مرأب الحافلات العامة في النهضة والذي يعج بالحافلات الكبيرة والصغيرة وسيارات الأجرة وفوضى المسافرين وباعة الجرائد والسجائر والمأكولات المكشوفة، جلسنا فوق مقعد إسمنتي بارد بانتظار موعد الحافلة التي ستنطلق به إلى محافظة ديالى، ما أن فتحت الحافلة أبوابها حتى تكدست أكوام الأجساد البشرية تتدافع نحوها على أمل الظفر بمقعد مريح، كان صديقي يناضل بقوة من أجل الحصول على واحد، أخيرًا استقر علي على مقعد قرب شباك الحافلة وأشار إليَّ بيده مودعًا، ومضت الحافلة بعد أن هدرَ محركها بقوة وأطلق موجة من الدخان الأسود الذي تغلغل في رئات الناس دون استئذان ولوثَّ بيئة المرأب، ودعته على أمل لقائه بعد يومين مع أخبار سارة.

لم يكن الضابط قريب علي مقتنع برغبة قريبه في التقديم للبعثة، خصوصًا بعد معرفته بعلامات علي المتفوقة، حيث قام بنصحه لإكمال دراسته الجامعية في إحدى الكليات المدنية الجيدة في بغداد، دون الدخول في معترك الجيش والتزاماته ومشاكله.

تمامًا بعد يومين عاد علي، أسرعت بلقاءه حيث أخبرني بكل ما حصل عليه من معلومات غير مُشجعة، رغم هذا قررنا أنا وعلي ألا نُعير لكلام أقاربه أي وزن

أو اهتمام، وأن نمضي قدمًا بهذا المسار بعد أن اقتنعنا بشكل لا يقبل الشك بجدوى هذه البعثة ومنافعها، حيث كانت تحديدًا بالنسبة لي كطوق النجاة الذي يُرمى إلى غريق يائس في لُجَّة البحر الهائج.

قدمت وعلي الأورق المطلوبة مع المئات أو الآلاف من الطلبة الآخرين إلى مديرية التدريب الجوي التابعة لقيادة القوة الجوية ولم أزل دون سن الثامنة عشر، حتى أني لم أحصل على دفتر الخدمة العسكرية آنذاك، وهذا يعني أنني قد أكون العراقي الوحيد الذي لا يمتلك هذه الوثيقة المهمة جدًا حتى الآن، والتي تلعب دور مهم في حياة العراقيين أجمع.

الأيام تمضي والأحلام بدت بعيدة، تمَّ إرسال جميع الطلبة المتقدمين إلى مستشفى القوة الجوية لغرض الاختبار الصحي، إذ كان يجب فحص أجسامنا وتوفر الشروط الصحية اللازمة للقبول كضباط في الجيش العراقي، لا بد من الإشارة إلى موضوع ظريف حصل معنا أثناء الفحص، وكان مثيرًا للعجب، إذ أنهم أرادوا فحص أعضائنا التناسلية ولا أعلم حتى الآن لماذا تمَّ ذلك، ولكن الأكثر غرابة أن يتم ذلك من قبل طبيبة، وتحديدًا على يد امرأة شابة، وهذا ما أثار موجة من الدهشة والضحك والخجل.

بعد ذلك حصل ما لم يكن في الحُسبان، رغم نحافتي الشديدة وهزال بدني الواضح بعد مرضي المجنون تخطيت جميع الفحوصات بنجاح تام، وأذكر جيدًا أن وزني كان أقل من أربعين كيلوغرام فقط، أما صديقي علي فلم يحالفه الحظ، إذ فشل في فحص البصر حينما تبين أنه مصاب بمرض عَمى الألوان، وبهذا تلاشى حلمهُ كالسراب في صحراء شاسعة.

عُدنا أنا وعلي والدهشة تركبنا من رأسنا حتى أخمص قدمينا، إذ لم نكن نتوقع إطلاقًا عدم قبول علي، وتحديدًا لهذا السبب السَّري وغير المتوقع، توجهنا على فورنا إلى بيت علي، جلسنا حائرين كيف نُخبر أهله، وإذا بوالد علي يستفسر عن ما حصل معنا, أجابه علي بكل صراحة وضوح بأنه لم يعد ضمن قوائم

المتقدمين إذ أنه لم يستطيع اجتياز فحص البصر، لم يكن الموضوع مفهومًا لوالديه، ولقوة الصدمة كان من الصعب جدًا عليهم تقبل الموضوع حتى إن والده قال:

– وهل أنت أعمى أم ماذا؟ ألا تستطيع الإبصار؟

هنا تعطلت لغة الكلام عند علي فالتجأ إلى الصمت، سَكتَ ولم يجب، وبعد ما حصل لم يكن علي إلا خيال علي، دفع علي بأوراقه إلى الجامعة وعلمت لاحقًا أنه قد تمَّ قبوله في كلية الهندسة التابعة لجامعة بغداد، ومضى في دراسته فيها حتى النهاية والتفوق، أما أنا فلقد أكملت مشواري بكل ثقة واقتدار.

الأمل بدأ يتصاعد شيء فشيء، وحلمي بالطيران أخذ ينمو حتى وإن كان ببطئ شديد، لابد لي من ذكر حادثة نادرة قد يعتقد البعض أنها قد تكون إرادة إلهية أو تواصل حي لمسلسل صلوات أمي حتى أنها تصلح كسيناريو لفيلم هندي، حيث أنه وحسب سياقات الجيش المعتادة تقوم إدارة الاستخبارات العسكرية بالاستفسار الدقيق عن الطالب المتقدم للجيش وخصوصًا فيما يخص البعثة، والتثبت في موافاته لجميع الشروط السياسية والأخلاقية وغيرها، على أن يكون المُتقدم للجيش غير منتمي إلى حزب آخر أو سائر في اتجاه مُعادي للثورة والحزب الحاكم آنذاك.

دارت الأرض دورتها فبدا أن شمس بغداد تذوب في كبد السماء بلطفٍ وهدوء واستحياء، حتى بادرها الأفق الأحمر البعيد ببالغ الحُب والسلام المجيد، لملمت ذيولها بكبرياء وعناية وأصبحت قريبة من أفق النهاية، مُتجهة نحو وجه الأرض الآخر كي تمنحه نور وضياء، وتهبهُ من طاقة الكون خير وعطاء، مساء ذلك اليوم الصيفي الصافي ذو الهواء الجاف اللاهب وبينما كانت أمي في طريقها إلى سوق قريب للتبضع؛ استوقفها أحد الأشخاص وسألها عني دون أن يعلم أنني ابنها وهي بدورها لم تخبره بذلك، استعلم الشخص منها بتأني وإسهاب عن سلوكي وتوجهاتي السياسية، وسألها هل أنا من صُناع المشاكل مع

أهالي الحَي وغيرها الكثير من الأسئلة، حصل على جميع الإجابات على أسئلته الكثيرة من أمي، ألقى عليها السلام فرِحًا كونه وجد من يحدثه عني بتفصيل شافي ووافي، حيث استطاع أن ينجز مهمته بسرعة مُذهلة دون عناء، ورحل إلى وجهته بعد أن شكرها كثيرًا، ولما كانت المتحدثة هي أمي لذلك لم تتوانَ عن كيل كافة أنواع الإطراء، كما لم تبخل بأي جهد لتتفنن في مدحي.

كانت أمي الطيبة لا تعلم أنها توًا قد فعلت مُعجزة أخرى، بعد أن اتضح أنه أحد رجال الأمن أو الاستخبارات العسكرية، والمُكلف بالسؤال عني وتحديدًا فيما يخص البعثة الدراسية.

يوم جديد وأمل مُتجدد، تمَّ تحديد يوم المقابلة، وهكذا شاءت الأقدار أن أكون أول من يُدعى إلى المقابلة من بين مئات أو آلاف الطلبة بعد أن لم يحضر الطالب الأول للمقابلة، وقيل إن له خلفيات سياسية غير مرغوبة، الحرُّ على أشده والجو في أزقة قيادة القوة الجوية الضيقة وبين زحام ورائحة عرق الطلاب خانق، تمَّ استدعائي إلى القاعة المُخصصة للمقابلة التي كانت صغيرة جدًا.

حال ما دخلت إلى القاعة فوجئت بالعدد الكبير من رجال مرموقين يظهر عليهم الهيبة والحزم، يجلسون على شكل مربع ينقصه ضلع، ويرتدون بزات عسكرية مُثقلة بالنجمات المتلألئة مع خطوط حمراء قانية طرزت أكتافهم – لاحقًا أدركت أنها علامات شهادة كلية الأركان العسكرية – الذين بدو كأنهم استعدوا لهجوم شامل، ينظرون إليَّ بنظرات بعضها يشوبها الابتسام المُبطن، والآخر منها غير مفهومة قد تكون متسائلة؛ هل هذا الصغير الهزيل النحيل هو هدفنا كي يصبح مهندسًا للطائرات؟، وأنا كطفل صغير أغور في ظلي.

وقفت أمامهم جائع خائر حائر خجل أرتجف خائف، أخذت أبتلع ريقي الذي كان أصلاً جاف بصعوبة بالغة، كنت أرتدي نعال قديم طويل كنعال أبي القاسم الطنبوري، مع بنطال ضيق كعود الناي العربي، على شكل اسطوانة لم يلامس

سطحه جهاز كوي الملابس يوم، هنا عزفت الطنابير في رأسي فتشتت تركيزي وضعفت قدرتي، بدت الدنيا لي وكأنها أطبقت عليَّ من جميع المحاور، أنظر إليهم فيزداد رُعبي فأنحني قليلاً من ثقل الحدث، ثم أحاول رفع نفسي قدر ما أستطيع رغم خواء معدتي.

بدا الوضع برمته كفيلم مصري يظهر فيه بطل الفيلم أمام محكمة، وعليه أن يدافع عن نفسه كي يتبرأ من التهمة الموجهة له، بدأ الضباط واحد تلو الآخر يصوب سهامه نحوي، وأخذت أسئلتهم تنهال علي من كل صوب وحدب، وفي مختلف الاختصاصات العلمية، كنت أجيب بقوة خفية ألهمني بها الله وحده رغم شقائي، حتى سألني أحدهم عن أسباب عدم انتمائي إلى الحزب الحاكم، وكانت إجابتي له أني فقير وليس لدي مال كي أعطيه كانتساب شهري للحزب، وأني أركز جهدي على دراستي فقط، وأخيرًا تمَّ سؤالي عن منجزات الثورة فأوجزتُها جميعها بعد أن كنتُ قد حفظتُها كالببغاء.

دامت المقابلة حوالي نصف ساعة كاملة، بدت لي وكأنها نصف قرن من الزمان، خرجت من القاعة أجرُّ خُطاي بصعوبة، متعبًا مُنهكًا لا أقوى على الوقوف، ما أن أطليتُ برأسي من الباب ورأتني حشود الطلبة الهادرة حتى هرع نحوي مئات أو آلاف الطلبة، الذين انتظروا لحظة خروجي من قاعة المقابلة، أحاطوني من كل جانب وانهالوا عليَّ بوابل هائل من الأسئلة التي تدور حول المقابلة وأسئلتها، كمدفع رشاش أوتوماتيكي أجبتهم جميعًا دون وعي، وبشكل آلي وسريع حتى خارت قواي بالكامل، ولم أعُد أقوى على الكلام إذ تلاشى صوتي، نَهَرني أخرهم الذي التقاني في نهاية الزقاق قرب الشارع الرئيسي لكوني لم أقوَ على إجابته لاختناق صوتي في جوفي.

بدأت الخطى تتسارع وتحقيق حلم هندسة الطيران أصبح قاب قوسين أو أدنى؛ إذ حل موعد الحقيقة وجاء يوم الحساب الكبير وهو إعلان أسماء الطلبة الاثني والعشرين المقبولين في البعثة، من ضمن المئات أو الآلاف المُتقدمين والذين

سيرسلون إلى الاتحاد السوفيتي، لدراسة هندسة الطيران على نفقة وزارة الدفاع العراقية، والذين وحسب الأوامر العليا للدولة والقيادة سيشكلون نواة القوة الجوية الحديثة للبلد.

جاء الضابط المسؤل يحمل ملف الأسماء، وجميع الطلاب في لهفة وخوف وحذر لمعرفة نتيجة مصيرهم، سرتُ سريعًا وأصبحتُ بجانبه وسألته عن نتيجتي بعد أن أعطيته اسمي الكامل ومجموع درجاتي، فما كان منه إلا أن قال لي:

– أنت صاحب العلامات ٧٠٠[1]؟

– نعم سيدي...

أجبته فورًا فقال:

– أنت رقم واحد في قائمة المقبولين في البعثة...

لم أذكر أني شكرته أم لا وقتها، لم تسعني الدنيا من الفرح، شعرت بكثير من الفرح والسعادة حين اعتقدت أنَّ الحظ بالفعل قد ابتسم لي لأول مرة في حياتي، وأحسستُ بالفخر الكبير في نفسي، حين أخذ الجميع يشيرون إليَّ بالبنان.

دعوات أمي أخذت تفعل مفعولها السحري، تحديدًا في هذه اللحظة الحاسمة كان الله قد حدد مستقبلي وخط حياتي ومصيري، أما الطلبة الذين لم يحالفهم الحظ فتم توجيههم إلى الكلية الفنية العسكرية، التي كان من المخطط أن تُفتح في بغداد لاحقًا.

:- ٧٠٠: اعتمدت قيادة القوة الجوية في العراق آنذاك مجموع علامات الطالب الحاصل عليها، مُضافًا إليها درجة كل من مادة الرياضيات والفيزياء، ولمَّا كان مجموع علاماتي هو ٥١٣ يضاف إليه ٩٨ للرياضيات و٨٩ للفيزياء فيكون المجموع ٧٠٠، علمًا أن علامات الطالب رقم ٢ من مجموع الاثني والعشرين كانت ٦٧٠ أي بفارق ٣٠ درجة.

كان على المبعوثين الاثني والعشرين أن يقدموا كفالة بمبلغ خمسة آلاف دينار عراقي لوزارة الدفاع، كضمانة لعودتهم إلى البلد وكي لا تتكرر ظاهرة هروب المبتعثين وبقائهم في الدول الأجنبية، هذه الكفالة أعادتني وعائلتي إلى ظُلمة كُبرى وجعلتنا على المحك، إذ أننا لم نكن نملك سوى قوتنا اليومي، ناهيك عن عدم امتلاكنا لأية أملاك أو أراضي، كما أنَّ الأقارب لم يكونوا على استعداد لركوب هذه المغامرة الخطرة بسبب ضخامة المبلغ المطلوب آنذاك، وكذلك لتحسبهم المُسبق في احتمال عدم رجوعي إلى العراق، لذا بدأتُ ألعن سر هذا الزمن الأغبر، فمبلغ خمسة آلاف دينار آنذاك كان كبيرًا جدًا ويساوي سعر بيتين كاملين مجتمعين، ولهذا كان من المستحيل الحصول على مَنْ يقوم بهذه المهمة الخارقة.

كما يقول المثل الشائع (إذا خُليت قُلبت) فالطيبون أهل الإحسان كثيرون ويتوافرون في كل مكان، وإذا ما ضاقت الدنيا فلابد أن تفرج، إزاء هذه الحال انتفض والدي المناضل وجال على جميع أقربائنا في بغداد وعلى كل من اعتقد أنه قادر أن يقوم بالمهمة المُستحيلة ولم يفلح معه الأمر، علمًا أن قيادة القوة الجوية كانت قد منحتنا وقت محدود جدًا لتأمين الكفالة، وعكس ذلك فإنَّ أمر بعثتي سيفشل بالكامل وهنا انحسرت ثقتي بالسفر والبعثة وهندسة الطيران، هبطت معنوياتي إلى الحضيض، وبدا حلم هندسة الطيران بعيد جدًا، واعتقدت أنني لن أمس طائرات السماء إطلاقًا، لقد كان وقت عصيب جدًا علي وعلى عائلتي.

كان لوالدي الطيب صلات رحم طيبة مع معارف مندائيين قريبين له يقطنون في مدينة البصرة، لذا عزم أمره وشد رحاله للذهاب إلى مدينة النخيل (البصرة الفيحاء) ثغر العراق الباسم، إلى أصدقائه المُخلصين الذين اعتقد أنهم لن يخذلوه إطلاقًا.

وفعلاً حصل أن ابتسمت له ولي الحياة، وحالفه الحظ واستطاع تأمين الكفالة بواسطة شراكة اثنين من أصدقائه الطيبين وهما {عبد العالي راهي المعناوي وهادي السبتي} (رحمهما الحي العظيم وأثابهما خير ثواب)، مع جهود طيبة من قبل أخي (حبيب) الذي كان يعمل موظف صحي ويقطن في مدينة البصرة.

لم تمر أيام ثقيلة وعصيبة حتى عاد المُكافح والدي إلى بغداد حاملاً البشرى مصحوبًا بوثائق الكفالة ومُحرزًا فتحًا كبيرًا، وبذلك أصبحت على مرمى حجر من الرحيل إلى الاتحاد السوفيتي ودراسة هندسة الطيران.

هنا وفي هذه اللحظة الحاسمة لا بد من أشير إلى شيء غاية في الأهمية؛ هو أن أمنية أمي الحنون بعد صلواتها المُستجابة قد تحققت بالفعل وأصبحت واقع حَي بأن أكون مهندس طيران.

ملأت صدري بهواء العراق الدافئ ليرتجف جسدي كلهُ رهبة وانفعال من المجهول الذي ينتظرني، تركت أمي وأبي وإخوتي وأصدقائي، لم أترك أي شيء مادي أعتز به، لأني ببساطة لم أكن أمتلك أي شيء خاص بي، هكذا رحلت من بلد مولدي ولم أزل صبي نحيف يافع أخضر العود، لم أكمل بعد عمر البلوغ، إلى بلد غريب أجهله تمامًا هو الاتحاد السوفيتي، انتهت رحلتي القاسية مع الجوع والحرمان وبدأت هجرتي الجديدة مع الغربة القاسية، كل ما كان يهمني هو التقدم والتطلع إلى المستقبل لا إلى الماضي الأليم.

بعد مرور خمس سنوات استطعت الحصول على شهادة الماجستير في هندسة الطيران بتفوق، كما حصلت على شهادة جامعية إضافية في اللغة الروسية وترجمتها، عدت إلى الوطن بشهادتين بدلاً عن واحدة، وبدأت مشواري العملي في الخدمة في الجيش العراقي والقوة الجوية العراقية.

بعد أن بدأت خدمتي في القوة الجوية العراقية إثر حصولي على رتبة ملازم أول مهندس؛ عملت في السرب ٤٤ في قاعدة الحبانية (تموز) الجوية على

طائرات السوخوي ٢٢ روسية الصنع، كانت علاقتي الشخصية مع الطيارين وخصوصًا الشباب منهم ممتازة جدًا، وكانت تجمعني بهم علاقة عمل رائعة، غالبًا ما كُنا نتحدث ونتبارى في المعلومات الهندسية وكذلك أمور الطيران، حتى إن أحدهم ويدعى (ناجي) رحمه الله – حيث استشهد في أولى أيام الحرب العراقية الإيرانية– تحداني أن أحلق يومًا بطائرة مثله، قبلت تحديه وقلت له إني قد أصبح يومًا ما مدرب له أو طيار فاحص.

في بغداد كنت أسير بزيي العسكري مزهوًا بأجنحتي ونجماتي الذهبية المتلألئة، بينما العديد من الناس يحدقون بي بدهشة كوني كنت صغير العمر نحيل البدن، حتى أنَّ بعض الفتيات الجميلات كن يحاولن جذب انتباهي لهنَّ.

كان التحليق يمتلكني كليًا كي أطير كطائر حر في فضاءات الكون الصافية، تذكرت كلمات أمي أن أصبح (مهندسًا طيارًا)؛ وهنا تجدد حُلمي وهوسي في الطيران مرة أخرى، وهذا ما دفعني إلى أن أُفكِّر جديًا بدراسة الطيران والالتحاق بكلية القوة الجوية كي أصبح طيارًا، إضافة إلى كوني مهندس ومترجم، وبذلك أحقق رقم قياسي فريد في الحصول على ثلاثة ألقاب وثلاثة مِهن، وأن أكون مهندس وطيار فاحص ومترجم في بلد لا يمتلك من يجمع هذه الاختصاصات.

قررت أن أذهب إلى المستشفى العسكري في القاعدة لأعرض نفسي على طبيب مُختص، ما أن ولجتُ المستشفى حتى جال ببالي منظر الطبيبة الشابة وهي تقوم بفحص أعضائي الذكرية بيديها العاريتين، كان ذلك حين تقدمت للفحص الطبي قبل خمس سنوات، فأطلقتُ في سري ضحكة خفيفة، ولكن هذه المرة كان الطبيب رجل طيب وبرتبة عقيد، استقبلني بحرارة، بعد العديد من أحاديث المجاملة قصصتُ له حكايتي ورغبتي في الطيران، ورجوته كي يفحصني بشكل كامل ويتأكد من صلاحيتي وسلامة بدني كي أستطيع التقديم لكلية الطيران بغية دراسة وتعلم الطيران.

كان أملي كبير بتحقيق هذا الحلم، إلا أن القدر هذه المرة لم يسمح لي بتحقيقه وجاءت رياح الطيران بما لا تشتهي أشرعة سفني، إذ تبين أن صحتي لا تسمح بذلك، كون بصري وكذلك وضع جيوبي الأنفية لا تؤهلاني للطيران، هذا ما أخبرني به صديقي الطبيب، وبذلك فشلت محاولتي في التحليق والطيران وسقط حلمي مثل (عباس بن فرناس)، ولكن دون أن أضحي بحياتي مثله.

لم يكن بصري ومقدرتي الصحية الضعيفة لتؤهلاني كي أمضي نحو التحليق للسماء والطيران، ومع ذلك فلقد حزَّ في نفسي هذا العائق وجعلني أتراجع عن التحدي القاطع لزميلي الطيار ناجي، إذ أنه قد كسب الرهان دون منازلة عادلة.

obeikan.com